

البيان والتبيين

للجاحظ

تعريف بالمؤلف :-

هو " عالم العربية الجليل " عمرو بن محبوب ، ويكنى " أبو عثمان " وشهرته " الجاحظ " ولد " بالبصرة " عام ستين ومائة للهجرة النبوية الكريمة ، والذي يوافق سنة ست وسبعين وسبعمائة للميلاد ، والبصرة بومذاك مهد العلم ، ومنتدى الأدب ، ومركز الإشعاع الثقافي في العالم الإسلامي أجمع .

وقد أمضى " الجاحظ " في " البصرة " طفولته ، وكانت تلك الطفولة ، طفولة تعسة و أحاطها الشقاء من كل المناحي ، وانتظمها الكدح ، والجهد ، والتعب من شتى النواحي ، حيث إن والده توفي وهو في يفاعته فقد كان " الجاحظ " صغير السن ، ولم يرث عن أبيه ثروة يعيش بها ، أو يقتات منها ، أو حتى تعينه على مواجهة بعض أعباء الحياة ، بيد أن جو البصرة الثقافي دفعه إلى العلم والتعلم فذهب إلى الكتان وقد أظهر " الجاحظ " الصبي بومذاك ذكاءً خارقاً ونجابة نادرة ، ونباهة فذة ، وعبقرية شهد له بها غيره .

وكان نهماً في تحصيل المعارف ، فلما اشتد ساعده ، وقوى بنيانه أخذ يعمل إلى جانب طلب العلم ، وهذا العمل هو بيع الخبز والسمك في الأسواق ، وقد كان يغشى المساجد ليلتقى بعلمائها ، وليسمع منهم أو يجادلهم ، كما كان يتردد على سوق " المربد " قرب " البصرة " من العراق مركز الإشعاع الثقافي ، والتمدن ، والحضارة وكان يختلف إليه الشعراء والخطباء ، وقد شغله ذلك عن العمل فضاقت به أمه ، وذات يوم جاءها يطلب طعاماً فقدمت له أمه طبقاً فيه كراريس ورق وقالت له: " كل استهزاءً ، وتهكماً وسخرية من شغله بالدراسة ، واهتمامه بالقراءة ، وانصرافه عن العمل والكسب فخرج " الجاحظ " إلى المسجد مسروراً ورآه " يونس بن عمران " فأدرك حاله ، وسأله عن شأنه ، ولما وقف على أمره أعطاه " خمسين ديناراً " فأخذها الجاحظ ومضى إلى السوق ثم اشترى دقيقاً وطعاماً ، وعاد إلى داره

فى عجب ، وزهو ، وافتخار ، والحمالون يمشون وراءه فلما رأته أمه دهشت
وسألته " من أين لك هذا ؟ فرد عليها متشفيأً: "من الورق الذى قدمته لى فى الطبق " .

كان " الجاحظ " نهماً إلى القراءة ، لم يقع فى يده كتاب إلا أتى عليه ،
ويكترى حوانيت الوارقين ويبيت فيها للدرس والمطالعة ، وله قدرة فائقة على الحفظ
والرواية ، فأكسبه ذلك معرفة واسعة وثقافة متنوعة ، بين دينية وأدبية ، عربية
ويونانية ، فارسية وهندية ، والظاهر أنه عرف كتاف الخطاب Rhétorique
لأرسطو ، أو " الروطوريقا " كما تسميه المصادر العربية الأولى ، بعض المعرفة
قبل أن تتناوله الترجمة الكاملة ، وعاش فى عصر طافح بالقلم فى كل فن ، فعاصر
من رجال الفقه والحديث " مالكاً ، والشافعى ، وأحمد بن حنبل ، والبخارى " ومن
الكتاب " ابن المقفع ، وإبراهيم الصولى ، وابن قتيبة ، والمبرد ، وابن الزيات ، "
ومن علماء اللغة " الخليل بن أحمد " ومن الشعراء " بشار بن برد ، وأبا نواس
، ومسلم بن الوليد ، وأبا العتاهية ، وأبا تمام والبحترى ، وابن الرومى " .

ودرس على " الأصمعى ، وأبى عبيدة ، ، وأبى يزيد الأنصارى والأخفش .
والتقى بالنظام " أبى إسحاق إبراهيم بن سيار البلخى " المتوفى عام ٢٢١ هـ —
٨٤٥ م وتعلمذ عليه ، وأعجب به أستاذاً ، وقال عنه : " الأوائل يقولون : فى كل
ألف سنة رجل لا نظير له ، فإذا كان ذلك صحيحا فهو " أبو إسحاق النظام " وقد
اتخذ الاعتزال مذهباً ، وأصبح أحد ثلاثة من كبار المعتزلة ، وله طائفة خاصة
تنسب إليه تسمى " الجاحظية " يقول " ياقوت " فى كتابه " إرشاد الأديب : " اتفق
أهل صناعة الكلام على أن متكلمى العالم ثلاثة : " الجاحظ ، وعلى بن عبد الله
اللطفى ، وأبوزيد البلخى " والجاحظ يزيد لفظه على معناه ، وأما " أبوزيد "
فيتوافق لفظه ومعناه ، وسمى بالجاحظ لبحوظ عينيه .

وكان " الجاحظ " صاحب رحلة حيث إنه أمضى حياته متنقلاً بين " البصرة وبغداد " ثم رحل إلى " دمشق " وزار " أنطاكية " وثمت احتمال بأنه جاء " مصر " فأكسبه التنقل ، وتنوع البيئة ، وتباين العيش عمقاً فى التجربة ، وشمولاً فى النظرة ، وخبرة واسعة بأحوال الحياة والناس .

وقد كان " الجاحظ " دميم الخلقة ، جهم الوجه ، جاحظ العينين ، وسمى جاحظاً لذلك ، كما أومأنا إلى ذلك آنفاً ، حتى إنه بلغ فى جحوظ عينيه الغاية ومن هنا كان لقبه " الجاحظ " وقد سمع الخليفة " المتوكل " بمنزلته فى العلم والفهم ، فاستقدمه إليه " سر من رأى " " سامراء " ليؤدب ولده فلما رآه استبشع منظره ، وصرفه بعشرة آلاف درهم . وهذه الدمامة كانت من وراء مرحه ودعابته وسخريته من نفسه ، وتندرته بأعز أصدقائه واستخف بالعادات المرعية والآداب السائدة ، وأدرك أن المراوحة بين الجد والهزل تذهب برتابة الحياة وتخفف من ثقلها ، وأن تقديم الهزل بين يدي الجد أنفع له ، وأدعى إلى إقبال الناس عليه ، فكان لطيف الروح ، فكه المحاضرة ، صادق المواساة ، سريع البديهة ، حاضر النكتة ، يقبل على الحياة مغتبطاً بها ، متفائلاً لا يرى منها إلا وجهها المشرق ، يسجل الفكاكة حتى لو كانت على نفسه .

يقول : ما أخرجنى إلا إمرأتان : رأيت إحداهما فى العسكر ، وهو مصيف الخلفاء ، وكانت طويلة القامة وكنت على طعام فأردت أن أمارحها فقلت لها : انزلى كلى معنا ، فقالت : بل اصعد أنت حتى ترى الدنيا . وأما الأخرى فجاءتني وأنا على باب دارى ، فقالت : بى إليك حاجة وأريدك أن تمشى معى لنقضيتها ، فمشيت معها حتى أتت بى صائغ يهودى فأشارت إلى وقالت مثل هذا . وانصرفت ، فسألت الصائغ عن قولها فقال : إنها أتت إلى بفص ، وأمرتني أن أنقش عليه صورة شيطان ، فقلت لها : يا سيدتى ما رأيت الشيطان فجاءت بك .

وأقبلت الدنيا على " الجاحظ " وأقبل عليها يعب من متعها الحسية ، وما لبثت " البصرة " أن ضاقت " بالجاحظ " فرحل إلى بغداد ، وتردد على مجالس العلماء والأدباء ووجد عند أشياخها ما لم يجده عند أساتذته في البصرة وفيها استطارت شهرته ، وسمع به الخليفة " المأمون " فأراد أن يفيد منه ، وكان قد قرأ له في كتاب الإمامة " وأعجب به ، وأسند إليه ديوان " الرسائل " فلم يبق فيه غير أيام ثلاثة ، ثم تركه هارباً بحريته وعقليته لأنه لم يستطع أن يأخذ نفسه بنظم الدواوين وقوانينها ولم يتحمل الدسائس من الذين خافوا على مناصبهم من ذكائه وعلمه ، فترك وظيفته غير آسف عليها .

ويصف لنا " الجاحظ " الوظائف والموظفين بومذاك ، وهذا الوصف الذي سنورده ينطبق على جل الموظفين ، بل جميعهم إلا من عصم الله وهم قلة ، يقول " الجاحظ " : " فإن أولئك الموظفين ، لباسهم الذلة ، وشعارهم الملق ، وقلوبهم من لهم خول مملوءة قد لبسها الرعب ، وألفها الغزل فهم مع ذلك في تكدير ، وتغريض خوفاً من سطوة الرئيس ، وتكيل صاحب ، وتغيير الدول " .

ثم توثقت صلته بمحمد بن عبد الملك ، المعروف " بابن الزيات " وزير الخليفة المعتصم ، ثم " الواثق " من بعده ، وكان من كبار رجال الأدب والسياسة ، فكتب له " الجاحظ " ومدحه وأهداه كتاب " الحيوان " ولما توفي " الواثق " وتولى المتوكل " وكان يكره المعتزلة ، قتل " ابن الزيات " وفر " الجاحظ " حتى لا يكون ثانياً إثنين إذ هما في التتور ، ثم قبض عليه وجيء به مقيداً ، فقال له " أحمد بن رؤاد " والله ما علمتك متناسياً للنعمة ، كفوراً للصنعة ، معدداً للمساوىء ، وما فتنى باستصلاحى لك ، ولكن الأيام لا تصلح منك ، لفساد طويتك ، ورداءة داخلتك ، وسوء اختيارك ، وتغالب طبعك .

ويصف " المبرد " صاحب كتاب " الكامل " أيام " الجاحظ " الأخيرة فيقول : " وقد ثقلت عليه السنون فناء بها جسمه ووهنت أمامها قواه ، وأصيب بفالج نصفى ،

فعاد إلى البصرة ، مسقط رأسه ، ومهبط ذكرياته ، يحتفى ببيته وأمه ، يقول : دخلت على " الجاحظ " فى آخر أيامه فقلت له : كيف أنت ؟ فقال : كيف يكون من نصفه مفلوج لو خز بالمناشير ما شعر به ، ونصفه الآخر منقرس لو طار الذباب بقربه لآلمه ، وأشد من ذلك ست وتسعون سنة أنا فيها . ولم يمت " الجاحظ " ضحية المرض ، وإنما ذهب شهيد الكتب ، إذ كان من عادته أن يضعها كالحائط محيطة به ، وهو جالس بينها يقرأ ، فانهالت عليه وقتلته ولحدته ميتاً ، بعد أن كانت شاغل حياته ، وسلوة عقله عام ٢٥٥ هـ - ٩٦٨ م .

وكان " الجاحظ " نابغة عصره ، ويحكى عن " ثابت بن قره " العالم المشهور أنه قال " ما أحسد هذه الأمة إلا على ثلاثة أنفس : أولهم " عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) والثانى " الحسن البصرى - رحمه الله - والثالث " أبو عثمان الجاحظ " وصنف " أبو حيان التوحيدى " كتاباً فى تقرير (١١) " الجاحظ " .

مؤلفاته :-

للجاحظ " إمام العربية " كثرة كاثرة من التواليف ، والمصنفات فى شتى مناحى العلم والمعرفة ، ولكن مؤلفات " الجاحظ " لم تصل إلينا كاملة حيث امتدت إليها يد الضياع ، فانمحق كثير من تأليفه ، واغتالته يد الزمن ، وضاع جلها فى عهد باكر مثل كتاب " نظم القرآن " فنحن لا نعرف عنه شيئاً سوى ما أورده " الجاحظ " عن هذا الكتاب فى كتابه " الحيوان " .

وأشهر مؤلفاته " الحيوان ، والبلاء ، والبيان والتبيين وهو موضوع دراستنا " .

١ - إرشاد الأديب / لياقوت . الحيوان / للجاحظ . معجم الأدباء / لياقوت . البيان والتبيين / للجاحظ .

بين يدي الكتاب :-

إن كتاب " البيان والتبيين " بعد الحلقة الثانية من سلسلة مكتبة " الجاحظ " وهو أشهر كتبه ، وأكثرها تداولاً ، وأعظمها نفعاً فهذا الكتاب استقامت ألسن الكثيرين من طلاب العلم ، وبه تخرجت كثرة كاثرة من الأدباء ، فهذا الكتاب يعد أيضاً أستاذاً لأرهاب متعاقبة من المتأدبين ، وهو شيخ جماعات متتابعة ممن صقلوا ذوقهم بصقال " الجاحظ " ورفعوا منهم بالتأمل في فنه ، وعبقريته . وفيه يقول : " أبو هلال العسكري " وذلك عند الكلام على كتب البلاغة : " وكان أكبرها ، وأشهرها كتاب " البيان والتبيين " " لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ " وهو كثير الفوائد ، جم المنافع لما اشتمل عليه من الفصول الشريفة ، والفقر اللطيفة ، والخطب الرائعة ، والأخبار البارعة وما حواه من أسماء الخطباء ، والبلغاء ، وما نبه عليه من مقاديرهم في البلاغة والخطابة ، وغير ذلك من فنونه المختارة .

إلا أن الإبانة عن حدود البلاغة وأقسام البيان والفصاحة ميثونة في تضاعيف الكتاب ومنثورة في أثنائها ، وهي ضالة بين الأمثلة لا توجد إلا بالتأمل الطويل ، والتصفح الكثير ، وهو كلام رجل قرأ الكتاب ، وسير أغواره ، وخبر أسرارها ورازه ، بيد أنه لم يشأ أن يرسم لنا صورة واضحة وابن رشيق القيرواني يقول : " وقد استفرغ " أبو عثمان الجاحظ " وهو علامة وقته - الجهد ، وصنع كتاباً لا يبلغ جودة وفصلاً ، ثم ما ادعى إحاطته بهذا الفن لكثرتة ، وأن كلام الناس لا يحيط به إلا الله - عز وجل - أما " ابن خلدون المغربي " فيسجل لنا رأى قدماء العلماء إذ يقول عند الكلام على علم الأدب : " وسمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول هذا الفن ، وأركانه أربعة دواوين وهي :-

أولاً :- أدب الكاتب لابن قتيبة الدينوري .

ثانياً :- كتاب الكامل للمبرد .

ثالثاً :- كتاب البيان والتبيين .

رابعاً :- كتاب النوادر لأبى القالى .(١٢)

وما سوى هذه الأربعة فتبع لها ، وفروع عنها .

منهجه فى الكتاب :-

كان " الجاحظ " لا يتقيد بنظام محكم يترسمه ، ولا يلتزم نهجاً مستقيماً ، فهو يبدأ الكلام فى قضية من القضايا ثم يدعها ليدخل فى قضية أخرى ، ثم يعود إلى ما أسلف من قبل ، وكانت هذه سبيل كثرة من علماء عصره ، ويشفع له فى ذلك تقدمه فى السن ، وجدة التأليف فى تلك الأبحاث التى طرقها ، كل هذا كان شافعاً له فى الاسترسال والانطلاق . وكان " الجاحظ " يشعر بذلك أحياناً ويعتذر عنه ، فيقول عند الكلام عن البيان : وكان فى الحق أن يكون هذا البيان فى أول هذا الكتاب ، ولكننا أخرناه لبعض التدين (١٣).

وهو يعد فى أواخر هذا الجزء أن يتكلم فى الجزء الثانى على طعن الشرعبيه على العرب فى اتخاذ " المخصره " ثم يحاول الوفاء بما وعد فى الجزء الثانى ، ولكنه يرى أن الفرصة لم تسنح له بعد فيعتذر بقوله : " ولكننا أحببنا أن تصدر هذا الجزء بكلام من كلام رسول رب العالمين ، والسلف المتقدمين ، والجلة من التابعين " ويمضى الجزء بأكمله ولا يستطيع " الجاحظ " الوفاء بما وعد به صدر الجزء الثالث من الكتاب .

ومرد مباحث الكتاب وقضاياها إلى الضروب التالية :

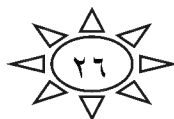
أولاً : البيان والبلاغة .

ثانياً : القواعد البلاغية

ثالثاً : القول فى مذهب الوسط .

١ - الصنائع / لأبى هلال العسكري . العمدة / لابن رشيق القيروانى ج ١٧١ فى باب البيان . مقدمة ابن خلدون ص ٨٥

١٣ - البيان والتبيين للجاحظ ج ١ ص ٧٦ .



رابعاً : الخطابة .

خامساً : الشعر .

سادساً : الأسجاع .

سابعاً : نماذج من الوصايا والرسائل .

ثامناً : طائفة من كلام النساك والقصاص وأخبارهم .

تاسعاً : عرض لبعض كلام النوکی والحمقى ونوادرهم .

عاشرأ : ضروب من النكات البلاغية .

نماذج من الكتاب

النموذج الأول : " فى ذكر المعلمين " :

ومن أمثال العامة : " أحق من معلم كتاب " وقد ذكرهم " صقلاب " فقال :
وكيف يرجى الرأى والعقل عند من يروح على أنثى ويغدو على طفل^(١٤)

وفى قول بعض الحكماء " لا تستشيروا معلماً ، ولا راعى غنم ، ولا كثير القعود مع النساء " وقالوا : لا تدع أم حبيبتك تضربه فإنه أعقل منها وإن كانت أسن منه .

وقد سمعنا فى المثل " أحق من راعى ضأن ثمانين " (١٥)

فأما استحماق رعاة الغنم فى الجملة فكيف يكون ذلك صواباً وقد رعى عدة من جلة الأنبياء - صلى الله عليهم - ولعمري إن الفدادين من أهل الوبر ، ورعاة الإبل لا يتتيلون على رعاة الغنم ، ويقول أحدهم لصاحبه: إن كنت كاذباً فحلبت قاعداً ، وقال الآخر :

ترى حالب المغرى إذا صر قاعدا
وحالبهن القائم المتطاوّل^(١٦)

١٤ - الحيوان : ج ٥ ص ٤٨٨ .

١٥ - عيون الأخبار : لابن تينة ج ٢ ص ٥٤ .

١٦ - البيان والتبيين : للجاحظ ص ٢٤٨ ، نشر مكتبة الخانجى بالقاهرة ط الخامسة ١٤٠٥ هـ ١٩٨٥ م .



النموذج الثاني :

خطبة (يوسف بن عمر)

ومن خطبة " ليوسف بن عمر " يقول فيها :

اتقوا الله عباد الله ، فكم من مؤمل أماً لا يبلغه ، وجامع مالا لا يأكله ، ومانع ما سوف يتركه ، ولعله من باطل جمعه ومن حق منعه ، أصابه حراماً ، وأورثه عدواً ، فاحتمل إصره ، وباء بوزره ، وورد على ربه أسفاً لاهفاً ، قد خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين ^(١٧).

النموذج الثالث :

قال عيسى بن مريم عليه السلام : " فى المال ثلاث خصال أو بعضها قالوا وما هى يا روح الله ، قال : " يكسبه من غير حله ، قالوا فإن كسبه من حله ؟ قال : " يمنعه من حقه قالوا : فإن وضعه فى حقه ، قال : يشغله إصلاحه عن عبادة ربه . وقيل للرجل المريض كيف تجدك؟ قال : أجدنى لم أرض حياتى لموتى .

ويقول أبو ذر (رضي الله عنه) مارقت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وقوتى من الجمعة إلى الجمعة مُدّ بضم الميم وهو ضرب من المكايل ، وهو ربع صاع ، ولا والله لا أزداد عليه حتى ألقاه ^(١٨) .

وقيل لمحمد بن عمران : ما المروءة ؟ قال : ألا تعمل فى السر شيئاً تستحى منه فى العلانية .

١٧ - ذاته ج ٢ ص ١٤٣ .

١٨ - ذاته ج ٣ ص ١٩١ .

وقيل لأبى هريرة (رضي الله عنه) ما المروءة؟ قال: تقوى الله، وإصلاح الصنيعة، والغذاء والعشاء بالأفنية. ومر المسيح عليه السلام بقوم من بنى إسرائيل فشتموه فكلما قالوا له شراً، قال المسيح عليه السلام - خيراً فقال له " شمعون الصقي " : أكلما قالوا شراً قلت لهم خيراً فقال المسيح - عليه السلام : " كل امرئ يعطى بما عنده .

وقال بعضهم لامرئ القيس بن حجر : ما أطيب عيش الدنيا؟ فقال امرؤ القيس بن حجر الكندي : أطيب عيش الدنيا بيضاء رعبوبة ، بالطيب مشبوبة ، بالشحم مكروبة ، وسئل عن ذلك الأعشى فقال : صهباء صافية تمذجها ساقية ، من صوب غادية .

وقيل مثل ذلك لطرفة بن العبد البكري فقال : مطعم شهى وملبس دفى ، ومركب وطى . ويقول عامر بن عبد قيس : " الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت فى القلب وإذا خرجت من اللسان لم تجاوز الآذان (١٩) .